

الفصل الاول

في

الدولة العباسية

كانت الخلافة في أول أمر المسلمين شوري يختار القوم لها من وجدوا فيه الكفاية ، فلما كانت الفتنة بين بني أمية وغيرهم من بقية المسلمين لا سيما أهل الأمصار أيام عثمان وعلى رضى الله عنهما ، انقسم العالم الأسلامي قسمين ، قسم يرى الطاعة لبني أمية الذين كان بيدهم السلطان والقوة ، وقسم يرى أن لا طاعة إلا لبني هاشم . أضف إلى ذلك فرقة الخوارج التي دوخت بني أمية من غير أن يكون لها فيه سلطان طويل البقاء

كان الليل إلى بني هاشم أكثر انتشاراً في فارس منه في غيرها من بلاد المسلمين ، ومصدر ذلك أن مكان هذه البلاد من المسلمين لم يكن مكان الصديق فقد سلبها المسلمون ما كنها القديم ، فهي تتربص بهم الدوائر وتود لو وجدت فرصة تمسكها من الخروج وقلب السلطان . ولقد كان بنو أمية من الحرص على القوة والبأس ، ومن الرغبة في الاستئثار بالملك والسلطان بحيث أهملوا تطبيق قاعدة من أظهر قواعد الأسلام وأسمائها وهي المساواة المطلقة بين الشعوب المسلمة عربية كانت أم غير عربية فكان هذا الأهمال قاضياً على دولتهم من جهة ، ومسيئاً إلى دولة الأسلام

من جهة أخرى لأنهم أهانوا الفرس وأستعبدوهم ، فقال هؤلاء ، إلى بني العباس وآزروهم ، ونشأ عن هذا الميل الذي كان يؤيده انقسام العرب على أنفسهم ، ما كان من قيام دولة بني العباس وسقوط الدولة الأمية

قامت الدولة العباسية على يد الفرس من أهل خراسان ، فتولوا رعايتها حتى ساموا مقاليد الخلافة إلى أبي عبد الله السفاح ، فكان هذا داعياً لاتخاذ الخلفاء أنصارهم من الفرس دون العرب ، فقربوهم وأدلوإليهم بالنفوذ والسلطان في الدولة ، فقلدوهم الوزارة ، فتوجهت نحوهم الأنظار ، وأم دارهم القوم ، فظهر بأسهم ، واستفحل أمرهم ، وعلت في الدولة كلمتهم ؛ غير أن الدولة لم تكمد تنهض حتي كان بين الخلفاء من العرب وأنصارهم من الفرس ما كان من مساءة في أيام بني أمية ؛ يريد هؤلاء أن يستأثروا بالملك . ويريد أولئك أن يشاركوهم فيه ؛ ومن هنا كان قتل أبي مسلم الخراساني في أيام المنصور ، والفتك بالبرامكة في أيام الرشيد ؛ ومن هنا كان السبب الأول في ضعف الدولة العباسية

على أن الدولة الإسلامية كانت في هذا الأوان قد بلغت شأواً كبيراً من العظمة والحضارة والمدنية والعلم لم يصل إليه غيرها ، فكانت بغداد إذ ذاك مدرسة يؤمها الناس من كل جهة ، كما كانت مركز القوة والسلطان على العالم الإسلامي بأسره خلا دولة الأندلس ؛ وكما كانت بغداد كعبة العلم ومهبط الحضارة ومشرق الفلسفة ومنبع الحياة القومية ، كانت كذلك عاصمة الدولة وسيدة البلاد الإسلامية وصاحبة السلطان عليها كلها ، يعزها الخليفة ويعتز بها ، ليس لوالٍ من الولاة إلا الخضوع والخشوع لأمر

الخليفة فيها ، لا يجسر واحد منهم أن يطمع فيما ولى عليه ، ولا يجنح أمير إلى معصية الخليفة . فنمت الثروة وازدادت رفاهية الرعية واطمأنت النفوس ووصلت الأمة الإسلامية إلى عصرها الذهبي

على هذا صارت الدولة الإسلامية عظيمة بخلافاتها ، قوية بجندها ، محترمة بتماسك أطرافها ، متقدمة بعلومها وثروتها ، تهابها الدول المتاخمة لها ويخشى سلطانها أمراء أطرافها

بيد أنه في ذلك العصر العظيم الذي بلغت فيه الدولة مبلغها من القوة كان الرشيد قد أقام دولة بني الأغلب في شمال إفريقية لتحول بينه وبين الشيعة الذين كانوا قد أقاموا لهم دولة في مراکش هي دولة الأدارسة

جاء بعده ولده المأمون وولى طاهر بن الحسين بلاد خراسان والجزيرة لما كان له من اليد الطولى في إخماد نار الفتنة التي قامت بين المأمون وبين أخيه الأمين . فلما ثارت ثائرة القوم بعد مقتل الأمين وقام طاهر باطفاء لهيبها ، جعل المأمون ولاية طاهر إراثاً لأعقابه من بعده ، فتكونت بهذا دولة أخرى هي الدولة الطاهرية . وتبعث ذلك دويلات قامت باستقلالها في بعض الأطراف

ولما كان طاهر هذا من الموالى قوييت شوكتهم ، وتتطلع الأمراء والولاة إلى مثل ما وصل إليه طاهر وأولاده . فتحفز كل منهم إلى الوثوب واستعد للنهوض متى أمكنته الفرصة

ولقد ساعد هؤلاء الطامعين ميل المأمون والمعتصم إلى اقتناء الموالى واستكثار الشانئ من شبان الأتراك الذين كانت توفدهم أمراء الجهات إلى

الخلفاء بالهدايا وغيرها . فكان الخلفاء يختارون من بين هؤلاء أحسنهم خلقاً وأقواهم بنية كما يقول جورجى زيدان فى كتابه «التمدن الإسلامى» لاستخدامهم فى بلاطهم وأطلقوا عليهم اسم المماليك

استكثر المعتصم من هؤلاء المماليك لثلاثة أسباب . أولها أن أمه تركية الأصل ، ففيهم أخواله وأنصاره وفيه كثير من طبائعهم . وثانيها أنه عمل بوصية أخيه المأمون فى التحرز من الفرس لأنهم موتورون قديماً وحديثاً ، وقد كادوا يخلعوناه هو من الخلافة ، وهم الذين قتلوا الأمين . وثالثها خوفه من العرب ، وهم الذين كان العباسيون كلهم يخشون بأسهم لأنهم أنصار الأمويين وبهم قامت دولتهم من جهة ، ولأن فيهم أنصار العلويين من جهة أخرى . وهم الذين لم يغفلوا لحظة واحدة عن إثارة الفتن كلها وجدوا لذلك سبيلاً . لهذا كله رأى المعتصم أن يتخذ له جنداً غير هؤلاء جميعاً . فاستكثر من المماليك وكون منهم جيشاً يعززه ويستغنى به عمن سواه ؛ وزيد بعض المؤرخين أنه إنما ركن إلى هؤلاء لأنه ظن أن ليس لهم مطمع قديم يريدون إدراكه . ولم يدر بخلد المعتصم أنه بركونه إلى هؤلاء قد ركن إلى عنصر يخالف قومه فى العادات والأخلاق واللغة ، وغاب عنه أن لهم وطناً يحنون إليه ويذكرونه ، وأن فيهم من كان ذا بيت عريق فى المجد قد أزاله الإسلام ، فإذا ما سئحت له الفرصة ركن إلى إعادة عزه القديم ومجده السالف . غاب كل هذا عن المعتصم فأدلى بالخلافة وعزها والأمور ومقاليدها إلى أيدي هؤلاء الغامان وهم مختلفو الغايات متباينو النزعات ، فتمشى فى الدولة الضعيف الذى لم تستطع يوماً ما بعد ذلك أن تقاومه أو تقاويه ، حتى ذهبت

كمن سبقها من الدول ونعاهها الناعون وكأني بحافظ إبراهيم وهو يقول :
واها على دولة بالأمس قدماءات جوانب الشرق رغداً من أياديها
كم ظلماتها وحاطتها بأجنحة عن أعين الدهر قد كانت توارىها
من العناية قد ريشت قوادمها ومن صميم التقي ريشت خوافيها
والله ما غلها قدماً وكاد لها واجتث دوحها إلا موالىها
لو أنها في صميم العرب قد بقيت لما نعاه على الأيام ناعىها
يا أيهم سمعوا ما قلته عمر والروح قد بلغت منه تراقىها
لا تكثروا من موالىكم فإن لهم مطامعاً بسمات الضعف تخفيها

وجد المماليك أنفسهم ولا منازع لهم في سلطان الدولة، فتفردوا بالملك
واستأثروا بالكلمة ، وأصبحوا ولا منافس لهم لا عرب ولا فرس ،
فاستبدوا حتى على الخلفاء ، فامتدت أيديهم إلى أموالهم وأرواحهم ،
ففقدت الأمة مكانتها وضاعت مهابتها ، فطمع فيها الطامعون من
الولاة وغيرهم

رأى عمال الأطراف ما وصل إليه حال الخلفاء في بغداد ، فوجدوا
في هذا أحسن فرصة للاستقلال بما في أيديهم ، لأنهم يرون أنفسهم أحق
بالاستئثار من هؤلاء الأعاجم ، فاكتفوا بإرسال جزء من الخراج إلى
بغداد ، وذكر اسم الخليفة على المنابر في المساجد حتى لا تثور العامة عليهم
ثم ينتهزون موت خليفة وقيام آخر ، فلا يدخلون تحت طاعته الأسمية
هذه إلا بشروط تزيد في موقفهم قوة واستقلالاً ، وما زالوا كذلك حتى
قويت شوكتهم فكان لهم من الخلافة مسماها وللخلفاء اسمها

على أنه بعد حين غير طويل وقع الخلاف بين هؤلاء الغلمان وصاروا يقتتلون حتى جاءت دولة بني بويه الديلمية وغلبتهم على أمرهم ونزعت ما كان لهم من السلطان والقوة . ولما كانت هذه الدولة شيعية تغالى فى التشيع لأولاد عليّ ، كادت تخرج بالدولة وتلقى بها إلى أيدي العلويين ، فيعترفون لها بالجميل ويدينون لها بالفضل فيحلونها منهم محل الأخلص والولاء

ليت شعري ماذا كان ينتظر هؤلاء الديلم من خلافة علوية فوق ما كان لهم من النفوذ والسلطان فى الدولة العباسية ، ذلك النفوذ الذى كان يعاوح بالخلفاء إلى حيث يريدون ، إما خلع وإما قتل وتمثيل مما تقشعر منه الأبدان لمجرد سماعه . ألا إنما هو الطمع يقود الجماعات والأمم فيقذف بها فى تيار جارف يهلكها من حيث تظن أن منجيتها ومنقذها

على أى حال فقد غالبهم الأتراك السلاجقة على سلطانهم حتى غلبوهم وقهروهم وحلوا محلهم ، فدانت لهم البلاد من الفرس إلى البحر الأبيض المتوسط ، وأعادوا آسيا الصغرى إلى حكم سلطان واحد ، وأحيوا بذلك الغيرة الدينية فى قلوب المسلمين ، تلك الغيرة التى كاد يقضى عليها الديلم ، ولم يقتصر عمل الدولة السلجوقية هذه على منابذة الديلم فحسب ، بل قامت تناوىء العلويين فى الشام ومصر حتى كادت تدخل هذا القطر

وكان من نتيجة قيامهم وظهورهم هذا أن وجدت روح جديدة فى الأمة الإسلامية أوجدت محاربيين أكفاء يرجع لهم الفضل الأكبر فى إذلال الصليبيين وقهرهم

لما ظهرت الخلافة والخلفاء بمظهر الضعف والاستسلام للولاء ، أنشأ

هو لاء وظيفة (أمير الأمراء) وصار يخطب لهم على المنابر في المساجد فيذكر اسمهم بعد اسم الخليفة فكان لأمير الأمراء من المنزلة في عيون الأمراء الآخرين ما جعل ولاية الإمارات يطمعون في منصبه متى آنسوا من أنفسهم قوة، وأمير الأمراء في هذا يحيط نفسه بسياسج من الموالي، حتي اذا ما قضى نحبه وجدت هو لاء الموالي وقد تقاسموا ترأثه وتنافسوا على السبق لمركزه على أنه ما كان أمير الأمراء ليكتفي بالأكثر من الموالي بل تراه وقد أقام حوله من ظهرت كفاءتهم العسكرية أو السياسية ليكونوا درعه المتينة وحصنه المنيع اذا دهمته الفتن وثار عليه الثائرون، ولكن الآية قد لا تلبث أن تنعكس عليه فيصبح أعوانه أعداءه ويكون على أيديهم هلاكه على هذا النظام قامت الإمارات التي كانت تتبع أمير الأمراء، فاذا رحل عن هذه الدار استولى كل وال على ولايته وقام القوي منهم يناوي الضعيف، هذا عدا ما كانت تقوم به أولاد أمير الأمراء نفسه من اقتسام ما بقي لهم من ملك أبيهم

كان هذا النظام سبباً في انحلال عرى الدولة العباسية العظيمة التي ظهرت بمظهر جليل يعدل في القوة والبأس، ما سبقها إليه اليونان والرومان، ولكن الخلفاء حادوا عن طريق الهدى واتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرهم الحياة الدنيا «فقربوا منهم من لم يعرفوا من الدين آدابه، ليس لهم هذا القلب الذي راضه الإسلام، ولا ذلك العقل الذي هذب الدين، بل جاؤوا بخشونة الجهل يحملون أعلام الظلم، فظهرت المفاسد وعم شررها القاصي والداني، فنخرت سوس الشقاق والطمع عظام الدولة حتي أبادتها»

هذا ولما كان من طبع الأنسان الحرص على ما في يده لا آخر لحظة من قدرته ووجدت الأسرار التي أفادت وقتاً ما الدين والدولة ؛ ولعمري لقد كانت فائدة وقتية قل أن يطول زمنها إلى أكثر من قرن أو قرنين ؛ ولقد كان هذا النظام سبباً في ظهور الأسرار التي قامت تناوىء الطامعين من الأمم الأجنبية فلولاها لما ظهرت الأسرة الأتابكية والأسرة الكردية اللتان يذكروهما التاريخ بكل إعجاب دون أن ينسى لهما ما قامتا به نحو الشرق والشرقيين من الخدمات الجليلة في رد غارات الصليبيين وتوحيد كلمة المسلمين في قطرين من أقطار العالم الإسلامي بعد أن مزقتهما أيدي الاختلافات الدينية الحزبية وهذان القطران هما مصر والشام

